أنا حزين لوجه الله..

أيا دَمَنا المشتهى!

هل سمعتم باحدٍ يرثي أحداً لا يعرفه؟!

هذا ما سافعل هذه المرة.. على قلّة المرات التي كتبت فيها راثياً او مؤبناً.

سارثي رجلاً لا اعرفه!.

إنني لم اقابله في حياتي قط! ولم ينلني من مكارمه او نبله او اريحيته او سماحته اي شيء على الاطلاق.. ومع ذلك.. وعلى الرغم من كل ذلك.. فإنني سارثيه!

ساضع على قبره دمعتين غزيرتين!. وساعلن الحزن!.

سيغرق وجهي بين يدي إلى أن يندمل الجرح ويلتئم الجلد مع الجلد.

ساسكب تَيْنك الدمعتين لوجه الله!.. وساعلن ذلك الحزن لوجه الله ايضا.. فانا لا تربطني اية علاقة، خاصة او عامة، باي احد من عائلة المرحوم او اقربائه.

كل ما استطيع ان اعترف به هو انني التقي كل يوم «!!» الكثيرين.. الكثيرين جداً.. من اصدقائه ومحبيه.. فهم هنا!.. وهم هناك!.. وهم في كل مكان.. اجدهم حيثما وجهت وجهي، فالمرحوم له فضله الجمّ.. وقلبه الكبير الذي اتسع ـ يا سبحان الله! ـ للجميع!

لقد شعرت بالم ساحق حين قالوا بانه قد مات! فانا كنت الوحيد، فيمن اعرف، الذي لم يقابله.. ولم يصافحه.. ولم يترك له، مع الأسف، الفرصة ليضيف حسنة اخرى إلى القائمة الطويلة التي تزدحم، حدّ الامتلاء، بحسناته.

اعتقد انه كان سيمسي سعيداً لو تهيا له ذلك لانه ظل يصرّ على ان يبقى هو «المتفضل» ابداً.

لم اسمع عن هذا الرجل منذ الاسبوع الماضي.. او الاسبوع الذي قبله كي اعتقد بان ما يقال عنه، من احبابه، إنما يستحثه شعور العطف عليه فهو مريض يحتضر.

لم اسمع عنه امس، او امس الاول، فاقول إن ما يتردد حوله من حكايات، وما يروى عنه من اقاصيص (تشبه الخيال!) إنما تنهمر هكذا بفعل الموت، والناس قد اعتادوا ان يذكروا (غالباً!) محاسن موتاهم!

لقد سمعت عن هذا الانسان الكبير منذ سنوات طويلة.. ومن سوء حظي انني لم انزل، قط، بلداً هو فيه. ولم يتهيا لي، قط، ان الج داراً، او اغشى مجلساً، او ادلف طريقاً، فالقاه وجهاً لوجه، هكذا ينتصب امامي

بكامل هيبته، فاحكم له أو للناس.. هؤلاء الناس الكثيرون الذين لا يملّون ذكره، والذين تلهج السنتهم بمناقبه ومآثره التي لا تحصى!!

انني حزين جداً لموته.. وحزين اكثر لانه قد ذهب وانتهى الامر!.. مضى ولن اقابله ابداً!

ابو سليمان، محمد الحمد الشبيلي،.. كتب عنه اصدقاؤه، في الايام القليلة التي خلت، الشيء الكثير.. كتبوا عما يتمتع به من صفات، وما ينعم به من مكارم وما يرفل فيه من فضائل!.. ولن اردّد هنا ما قالوه او كتبوه.. فتلك صحائف ذهبية سيحفظها تاريخه الرحب الممتد في قلوب محبيه.

انا ساقف امام نفسي مندهشاً واسال: وهل يبقى للانسان في هذه الدنيا غير الذكر الحسن.. كل شيء يذهب ويزول إلا الذكر الحسن.. وكل شيء يتضاءل ويهون امام الذكر الحسن. تلك عظة يقدمها ابو سليمان لأهل زماننا هذا من الانانيين والمتكبرين والمتغطرسين والغافلين والماخوذين بشئون الحياة وبهارجها. وتلك عبرة يدفعها ابو سليمان نحو أولئك الذين تغرهم الدنيا وبئس الغرور!

ساقف امام «ابو سليمان».. ولا ابالي!.. ساتخيله حيّاً في كامل نشاطه ووهجه وكبريائه، وساقول له، دفعة واحدة: لله درّ الأرض التي انبتتك يا رجل!.. فيك تتمثل اخلاق الصحراء، وشموخ الجبل، وسخاء البحر.. وأريحية الشمس التي من وظيفتها ان تبدد زوايا العتمة وتسحق الظلام.

إنني اثق ان هذه الأرض، التي اخرجت من طيباتها «ابو سليمان»، تضم بين جنباتها اكثر من «ابو سليمان» واحد!.. فاخلاق الصحراء لا تذبل ابداً، وسخاء البحر لا ينضب مطلقاً، واريحية الشمس ستبقى تتدفق بلا توقف او هوان، مهما كانت اغراءات الحياة الحديثة، ومهما تمادت - اي هذه الحياة - في زيفها، ومهما تداخلت او تشابكت سياقاتها المادية اللاهثة.

وهنا اقف، مرة اخرى، امام نفسي مندهشاً واسال: ما علاقة جيلنا هذا بجيل «ابو سليمان» وبالأجيال التي سبقته.

إن ذلك الأمس الذي يملؤه الحب ليس بعيداً كثيراً عن هذا اليوم الذي يملؤه الطموح! وقصة «ابو سليمان» هي قصة جيل كامل من ابناء هذه الصحراء النادرة الفذة!.. جيل لابد ان يمتدّ فينا، وفي الأجيال التي تلينا، من العرق إلى العرق!.. جيل لابد ان نوقظه في قلوب

الأبناء، وأن نشعله في دمائهم.. جيل لابد ان نجعله هاجساً للمستقبل في آفاقه الممتدة.. ذلك المستقبل الذي نرجو ان لا تكون تطلعاته عبئاً على الروحي، والصميمي، والاصيل، في تاريخه وحضارته، وفي تكوينه العقلي والنفسي!

قد لا نجد الوقت، احياناً، للقراءة المتانية في «خميرة» دمنا.. هذا الدم المتوهّج كالنار!..

وقد نتعجل في مراجعة أخلاقيات ترابنا.. هذا التراب المنهال كالموج!..

ولكننا حين نتريث، ثم نفكّر بهدوء سنجد ان رجلاً مثل «ابو سليمان» هو عنوان واحد من بين العناوين البارزة المتعددة في جيله.. فمثله كثيرون مشوا على هذا التراب نفسه.. واستنشقوا هذا الهواء نفسه.. وانعجنوا بتلك «الخميرة» ذاتها!

تاريخنا البعيد يقول ذلك.. وتاريخنا القريب يؤكده.. وحاضرنا يعيده ويكرره، مهما حاول الجيل الموجود اليوم أن ينغمس في ضجيج العجلة الحديثة السريعة التي لن تتوقف عن الدوران، والتي لن تحاول حتى مجرد التخفيف من سرعتها!.

اعتقد انه لابد من الصمود.. لابد من تعزيز الثقة في ميراثنا الجميل مهما حاول إيقاع المدنيَّة الجديدة ان يطرح امامنا مما هو خلاف ذلك. فمخطئون أولئك الذين يظنون أن ذلك الايقاع هو ـ بظروفه وشروطه الشرسة ـ لابد أن يكون نقيضاً للانساني.. والأخلاقي.. والتواصلي.

وإذا كانتْ المدنيَّة الحديثة تطرح نفسها بهذا الشكل الكالح في مجتمعات اهملت الروحي والقيمي، وركزت على المادي والمنفعي فإنها لابد ان تتراجع ـ عندنا ـ عن هذا القدر المزعج من الجراة!..فتُقْبلُ نحونا مخضلّة بالروح.. مجلّلة بالقيم والمثل والعقيدة التي آمنّا وسنظل نؤمن بها.

لابد ان نعيد تركيب هذه المدنيَّة الكاسحة على مزاجنا، ولابد أن نعيد صياغتها حتى تصبح على مقاسنا، فلا هي «اكبر» فتغرقنا.. ولا هي «اصغر» فتقعد بنا. وسنجد ـ حتماً ـ اننا في يوم ما قد كسرنا «القاعدة»، حيث سنكشف ان المدنيَّة الجديدة ليست ـ دائماً ـ نقيضاً للقيم الاصيلة، وليست ـ دائماً ـ ضداً للأخلاق والمثل والمبادىء!

لقدْ تعوَّد هذا الوطن، منذ فجر تاريخه، ان يرخي جناحيه بحنان وزهو شديدين على تلك القيم والأخلاق والمثل والمبادىء.. ثم يلقي

بعينيه في البعيد ولا يبالي باحد!

لقد تعود أن ينام على الحب.. وان يصحو على التوادّ والتراحم.

لهذا ظلت ارضه خصبة في انتاج الرجال الأشداء الذين يتركون علاماتهم بارزة فوق الوجه الواضح من مرحلتهم.

لهذا وُلِدَ على ترابه النادر الكثيرون من أمثال «ابو سليمان» سعةً في العين واليد والقلب.

إن أولئك الرجال ليسوا نبتات وحشية أو غريبة، جاءت بالصدفة، فقفزت إلى السطح هكذا دون مقدمات. بل انهم ـ على الاصح ـ نتاج مجتمع له عراقته، وله نقاؤه، وله ميراثه الضخم، وله ملامحه الخاصة..

اقول إن أولئك الرجال هم إفرازات تاريخ بعيد وقريب، تاريخ ممتد من الضوء إلى الضوء له شروطه، وله ظروفه، وله حمولاته التي تميزه عن كل ما سواه. وهنا ايضاً تصدق المقولة التي ترى ان «الأسد ما هو إلّا مجموعة خراف مصهورة». فاولئك الرجال ـ قياساً ـ ما هم إلّا خلاصة واقعية للأجيال الرائدة التي حفظت الدين والإخلاق والقيم، واقامت عليها، وغذتها، ورعتها، ولم تخنها أو تتخلّ عنها لحظة واحدة!

إنني أخاف تلك «الأدبيات» التي تترافق مع التحديات التي تطرحها المدنيَّة المعاصرة في غير مجتمعاتنا.. أخافها لانها ـ بالضبط ـ تضع «القوة» والتقدم نقيضاً للتشبث بالماضي والقديم، وتجعل المُثل والقيم ضداً للواقعية وطبيعة التسابق والصراع. وضداً للانطلاق، وسرعة الانجاز، وضرورة التجاوز وإيجاد البديل.

البديل قد يصلح في السياسي مثلا.. لكنه لا يصلح ابداً في الروحي والقيمي.. فربما كان من السهل العثور على بديل لعبد الملك بن مروان ـ مثلاً ـ أو المعتصم أو محمد علي ولكنه من المستحيل ان نعطي بديلاً للراسخ في روح الأمة من عقيدة ومُثُل، الراسخ في هويتها الخاصة التي تتفرد بها عن كل ما سواها.

وفي تلك المجتمعات ذات العلاقات الباردة.. اعني المجتمعات التي أكلتها المدنيَّة الحديثة، لو بحثت عن شبيه لـ «ابو سليمان» وجيله لاكتشفت ان الفشل سيكون حليفك.

ولو رويت لأهلها بعض ما يفعله «ابو سليمان» وجيله، لضحكوا كثيراً منك، ولاعتبروا أن ما يفعله هؤلاء، من مكارم ونبل، إنما يدخل في باب الحماقة والغباء، وتبديد الوقت، والجهد، والثروات.

هما ثقافتان مختلفتان.. وهما حضارتان مختلفتان كذلك.. في الشروط والظروف والمكونات والمرجعيات والمواد الأولية.

نحن نريد ان يستمر في اجيالنا ذلك «النقاء» الذي يتشح به جيل «ابو سليمان».. بالضبط لان ثقافتنا مختلفة، وبالضبط لان حضارتنا ايضا مختلفة، امّا المنافسة في الوجه المادي من الحضارة فستسنح لنا الفرصَة مرة اخرى لنكرر للتاريخ وللعالم «الدرس» الذي سبق ان القيناه بصوت مرتفع، أيام عزّ الحضارة العربية الاسلامية، وهو ان المدنيَّة ليست بالضرورة نقيضاً للقيم، وان الحضارة من مقوماتها ـ عندنا ـ المثل والمبادىء.

يا ايها الكتاب والأدباء كرروا على أسماعنا قصة جيل «ابو سليمان».. كرروها قبل ان نفتح أعيننا في يوم ما فنجد ان امسنا المليء بالحب يختلف كثيراً، في قلبه وضميره، عن غدنا المتوهج بالطموح!!